The place in the story (a fringe at the end of the world)

Dr. Lotfia Barham*
Dr. fayrouz abbas**
Noor Nadim Omran***

(Received 12 / 1 / 2023. Accepted 7 / 3 / 2023)

□ ABSTRACT □

This research discusses the place in the story (A fringe at the end of the world) by the author Hassan M. Youssef, and illuminates the aspects of the spatial semantic radiations that charged the general atmosphere of the story by emphasizing the tendency of Hassan M. Youssef for nationalism and humanity, and his entry into the Arab social fabric, whose area expanded in a wide area that allowed it to generate a semantic focus that inspires looking forward to liberation.

The place in the story of Hassan M. Youssef constituted an important part of the map of Arab fictional creativity, and a catalyst for delving into the thematic dimensions of spatial extension in the narrative achievement .

Keywords: place – story – creativity – fictional achievement.

Copyright **:**Tishreen University journal-Syria, The authors retain the copyright under a CC BY-NC-SA 04

* **Professor - Department of Arabic languish -Faculty of Arts and Humanities- Tishreen University- Lattakia -Syria**

****Assistant professor - department of Arabic languish Faculty of Arts and Humanities – Tishreen University- lattakia -Syria**

*****Postgraduate Student, department of Arabic languish - Faculty of Arts and Humanities- Tishreen University- Lattakia- Syria. nooromran@tishreen.edu**

المكان في قصة (هدبا في آخر الدنيا) لـ حسن. م. يوسف

د. لطفيّة برهم*
د. فيروز عباس**
نور نديم عمران***

(تاريخ الإيداع 12 / 1 / 2023. قبل للنشر في 7 / 3 / 2023)

□ ملخّص □

يشتغل هذا البحث على المكان في قصة (هدبا في آخر الدنيا) للقاص السوري حسن م يوسف، ليحدد الإشعاعات الدلالية المكانية التي شحنت الجو العام للقصة عبر توكيد نزعة القاص القومية والإنسانية، وولوجه في النسيج الاجتماعي العربي الذي اتسعت مساحته اتساعاً أتاح لها توليد بؤرة دلالية بالتطلع إلى الانعتاق.

لقد شكّل المكان في القصة بنوعيه : المفتوح، والمغلق، تقنية مهمة من تقنيات بناء القصة؛ لذا لابد من الوقوف عنده لتحديد دلالته.

الكلمات المفتاحيّة : المكان – قصة – الإبداع – المنجز القصصي.

حقوق النشر : مجلة جامعة تشرين- سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب الترخيص CC BY-NC-SA 04

*أستاذ، قسم اللّغة العربيّة- كلّية الآداب والعلوم الإنسانيّة – جامعة تشرين ، سورية
**مدرس، قسم اللغة العربية- كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة تشرين، سورية
***طالبة ماجستير ، قسم اللّغة العربيّة – كلّية الآداب والعلوم الإنسانيّة – جامعة تشرين ، سورية. nooromran@tishreen.edu

مقدِّمة :

كان المكان وما يزال من أهم تقنيات السرد القصصي المهيمنة على الزوايا الفاعلة في الخطاب القصصي، لأنه تلك المساحة التي تحتضن مجريات الأحداث ، فكل جزء مكاني هو حيز موضوعي للكينونة الحديثة، إذ يختزل الرؤى الوجودية لتتابع الأحداث والمجريات محفزاً المتلقي على تكوين مشهد حي مليء بالتفاصيل الحياتية المعيشة في جو القصة، ولاسيما حين تكون تلك القصة من قاص إنسان عاش بجرأة وألم، فكان إبداعه بوحاً يفيض برؤى الذات وأطر الواقع.

سبب اختيار البحث:

اختار البحث دراسة المكان في قصة (هدبا في آخر الدنيا)، من مجموعة (الساخر يخرس) للقاص حسن م يوسف، لتكون مادة البحث، لأنها تزخر بالأبعاد الدلالية للزوايا المكانية، وتشي بأهمية الفضاء المكاني.

أهمية البحث وأهدافه:

يعد هذا البحث انعكاساً لتوق الإنسان إلى الحرية، وإثارة حوافز الطموح، وتجلية الواقع المتردي المليء بالأزمات الاجتماعية والنفسية، لتحديد الدلالات التي يوحي بها المكان في القصة المدروسة، بهدف تتبع النزوع الواقعي، وتحويله إلى عتبة للانطلاق إلى أفق الطموح والتحرر من القيود.

الدراسات السابقة:

لم نقف على دراسة خصصت المكان في قصص حسن م يوسف، إنما أفدنا من دراسات كان المكان بها شذرات كونت مع المكونات السردية الأخرى البنية القصصية، ولكن أكثر ما وجدناه منوطاً ببحثنا هذا، هو دراسة للدكتور عدنان أحمد التي جاءت بعنوان: "السرد في قصة هدبا في آخر الدنيا " التي تناولت المكان تناولاً جزئياً، ولنا في: فن القصة لمحمد نجم ، و شعرية المكان في الرواية الجديدة لخالد خالد ، وغيرهما حيزاً أفدنا منه .

منهجية البحث:

تحقيقاً للأكاديمية العلمية ارتأينا الإفادة من معطيات المنهج النفسي، لأن المكان كان بؤرة تشع بالدلالات النفسية، فتعاملنا مع المنهج في هيكلية خاصة استقامت في مقدِّمة وثلاث فقرات وخاتمة، فالمقدِّمة شكَّلت توطئة مهدت لنا الدخول في فقرات الدراسة، ثم جاءت العناوين وفقاً للآتي: المكان لغة واصطلاحاً، الأنساق المكانية في قصة (هدبا في آخر الدنيا)، أنواع المكان في قصة (هدبا في آخر الدنيا)، وانتهى البحث بخاتمة أوجزت النّتائج التي تمخَّضت عنه .

المناقشة:

المكان لغة واصطلاحاً:

يشكل المكان زاوية وجودية مهمة ، فما المكان ؟

المكان لغةً:

ورد في لسان العرب مادة (مكن): " أمكنتها: مواضعها... ومكن جمع مكان "[1] ، فالمكان هو المساحة الجغرافية، أو البقعة الوجودية الحقيقية أو المتخيلة التي تجري فيها الأحداث .

المكان اصطلاحاً:

يشكل مفهوم المكان حقلاً واضحاً ، إنه " مكون محوري في السرد بحيث لا يمكن تصور حكاية من دون مكان، فلا وجود لأحداث خارج المكان ذلك أن كل حدث يأخذ وجوده في مكان محدد و زمان معين "[2]، ونعلم أنّ " المكان هو الإطار "[3] ، وهذا الإطار ليس قيداً بل رؤيا وجودية ، فالمكان نتاج مركب لتشابك أبعاد مختلفة[4]، تشكل مساحة العمل الأدبي، والمكان كما عرّفه الناقد الجزائري عبد المالك مرتاض: " هو كل ما عني حيزاً جغرافياً حقيقياً ما يند عن المكان المحسوس كالخطوط والأبعاد والأحجام والأثقال والأشياء المجسمة "[5].

الأنساق المكانية في (هدبا في آخر الدنيا).

إن النسق نظم متتالٍ من الوحدات المرتبة وفقاً لآلية معينة، وتوحيد الكلمة بالتنظيم والترابط، كما توحي بالتسلسل وتتابع الأفكار، وقد عرّف ابن منظور لفظ (نسق) بقوله:" النسق من كل شيء: ما كان على طريقة نظام واحد عام من الأشياء"[6]، ولدراسة الأنساق المكانية في القصة علينا أن ندرك أن المكان قد شكّل حضوراً فعّالاً في النّفس الإنسانيّة، وارتبط بالإنسان ارتباطاً وثيقاً ما جعله راسخاً في ذاكرته، مخلّفاً سجلاً من الذّكريات والمشاعر التي تبقى خالدة سواء أكانت سعيدة أم تعيسة ، ففي قوله : " انطلق ممدوح يعدو في الدرب المائل صعوداً نحو القمة " [7] ، نجد استحضار الدرب بوصفه وسيلةً من وسائل الانعتاق ، وكانت القمة مكاناً مفتوحاً أجّج لحظة الانفعال المشبع بالطموح.

يتشكّل المكان وفقاً للحالة النّفسيّة والاجتماعيّة التي يتعرّض لها المبدع، فعندما تكتنفه حالة شعوريّة تجاه مكان ما ؛ فإنّه يلجأ إلى رسمه فنّيّاً ونفسيّاً ، فيصبح جزءاً لا يتجزّأ من حياته ، فيتجاوز البعد الجغرافيّ والهندسيّ ؛ ليصبح مكاناً ملياً بدلالات وإيحاءات عديدة للكشف عن الحالة النّفسيّة المعيشة، أو للدّخول إلى عالم القصة، وفكّ مغالقها وتحليلها .

يرتبط الإنسان بالمكان ارتباطاً عميقاً، يجعله أكثر وإدراكاً لمعطياته التي يمنحها ديناميكيّة التّفاعل، ويُضفي عليها صوراً جماليّة ، فالمبدع لا يستطيع أن يبرح المكان الذي يحتويه في حياته ومماته فهو جزءٌ منه [8] . وقد وظّف القاص المكان في قصته، فكان عنصراً مهمّاً يشكّل محوراً أساسيّاً وجوهريّاً لديه ، وربّما يستحيل وجود نصّ قصصي يتفادى

---

[1] **لسان العرب ، ابن منظور ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، ط1 ، 2005م ، مادة (مكن).**

. تحليل النص السردي ، تقنيات و مفاهيم: محمد بو عزة ، دار العربية للعلوم ناشرون ، بيروت ، ط1، 2010، ص99.

[3] **فن القصة ، محمد يوسف نجم ، دار صادر ، بيروت ، ودار الشروق ، عمان ، ط1 ، 1996م ، ص 89.**

[4] **، ينظر ،شعرية المكان في الرواية الجديدة ، خالد حسين خالد ، كتّاب الرياض ، العدد 83، 2000م ، ص 77 .**

[5] **تحليل الخطاب السردي، معالجة تفكيكية مركبة. عبد المالك مرتاض، ديوان المطبوعات، الجزائر، ١٩٩٥م، ص٢٤٥.**

[6] **لسان العرب. ابن منظور، ج ١٠، ص٣٥٣، مادة(نسق).**

[7] **خمس مجموعات قصصية ، حسن م يوسف ، ص435.**

[8] **يُنظر: جماليّات المكان في الشّعر الجاهليّ – المعلّقات أنموذجاً: فواز معمري، المسيلة ، 2017–2018 م ، ص28 .**

حضور المكان ؛ لأنّه أساس من أسس الفضاء الإبداعي الذي يعتمده النّصّ في تشكيل بنيانه وبناء هيكله ؛ لذا فهو البؤرة المركزيّة في القصة ، وهذا ما نراه في قول القاص : " شرعت تعدو على الدرب الذي يلتف بشكل مائل، حول سفح الجبل المقابل، رغم وعورة الدرب، لم تخفف البقرة سرعتها، بل راحت تعدو بأقصى طاقتها " [9]، مشيراً إلى المعوقات الحياتية بوساطة نسبة صفة الوعورة إلى الدرب .

والمكان أحد أهم العناصر الحكائية في السرد القصصي، إذ إنه يشكل الحيز الوجودي والفضاء الذي تجري فيه الأحداث، ويقدم للقصة طابع المصداقية، إنه يحول القصة إلى جو حقيقي مليء بتفاصيل الواقع.

يشكل المكان في القصة مسرح الأحداث التي تتنوعّ بتنوع مكان حدوثها ، فالمكان يرتب الأحداث بينما الخطاب يرتب الأحداث ترتيباً متسلسلاً، وهذا ما يجعل المكان نسقاً متتالياً، لكنه في قصة (هدبا في آخر الدنيا) أفق متتالٍ ومتداخل معاً ؛ إذ يشكل عتبة تؤهّب للانطلاق إلى بؤرة المكان اللامحدود.

يمكن تذوق الدلالة الفاعلة لحضور المكان في القصة المدروسة بوساطة المشاهد التي تحوي تصريحا بلفظ ذات المكان، ففي قول القاص:" اختبأت كل الكائنات في الظل ، هرباً من سياط شمس آب اللاهبة، أما الهواء فقد سكن كما لو أنه يسترق السمع أو يشارك أهالي قرية (بطشيت) شعورهم بالخزي بعد هزيمة الخامس من حزيران التي وقعت قبل شهرين، ولا تزال تبدو ككابوس غير قابل للتصديق "[10]. نجد أن المكان بدا واضحاً في تصريحه باسم قرية(بطشيت)، حين جعلها مكان مشاركة جماعية(يشارك أهالي قرية بطشيت)، ليعلن رصده زاوية التشاركية في إيصال معنى عميق يمثل فكره الاشتراكي، بعيداً عن ظاهر الأمر المتجسد بمشاركة الأهالي في تلك القرية بعضهم بعضاً بوحدة الشعور بالخزي بعد هزيمة حزيران. يحاول القاص أن يسرد الأحداث منتقلاً إلى الوصف عبر تداعيات الخيوط العلائقية التي تربطها الأمكنة المتنوعة بدءاً من الأمكنة البسيطة التي حاول بوساطتها دمج الماضي بالرؤى، مروراً بأمكنة الحاضر التي مهدت لفضاء مكاني أكثر اتساعاً، فمن بوح المكان ما قاله القاص في بداية قصته:" أمام البيت الحجري القديم، ثمة سدة ترابية خفيضة، يهبط إليها بأربع درجات حجرية، حيث حظيرة البقرة، وقن الدجاجات، ويصعد إلى سطحها بثماني درجات حجرية أخرى، من زاويتي السدة الجنوبيتين، ينتصب جذعان متشعبان من التوت "[11].

يبدو المكان مرآة عكست معاناة هدبا، لكنه في الوقت ذاته، كان وعاء وجودياً حوى تفاصيل حياتها، بل كان كتاباً حوى ذكرياتها وأحداث واقعها، ورؤاها في الوقت ذاته؛ إذ نجد امتداد الأثر المكاني في قوله : (أمام البيت الحجري ثمة سدة...)، نجده يصرح بالبيت الحجري القديم ،والسدة الترابية ليلهم المتلقي بذات التراث القديم ومحاكاته في صورة جميلة تعكس تمسكه بالتراث، لكنه في الوقت ذاته يذكر تفاصيل قديمة دقيقة كقوله: (أربع درجات حجرية)، وهذا لا يعني العدد الظاهر، بل يعكس التسلسل الانتقالي في جو عرض الإرث القديم(حظيرة البقر، قن الدجاجات)، والحظيرة والقن ركنان يعلنان ارتباط القاص بتراثه.

لقد عُني القاص بالمكان البسيط الذي يناسب سذاجة الشخصية التي احتلت البطولة وهي(هدبا)، مشكلاً يقظة أصابتها في وجودها المر. ولن نجانب الصواب إن قلنا: إن تلك القرية قد تشكل الوطن العربي، وإن الرغبة في الانعتاق هي تلك الرغبة في الولوج إلى مرافئ الأمان، فالمكان كان لدى القاص مكانين أحدهما مفتوح، والآخر مغلق.

---

[9] **خمس مجموعات قصصية ، حسن م يوسف ، ص435.**

[10] **_خمس مجموعات قصصية. حسن. م . يوسف، ص٤٣١.**

[11] **_المصدر نفسه ، ص٤٣١.**

وحين نتأمل قول القاص:" وزعت فوق تلك الأخشاب أغصان أقل ثخانة، صُفت فوقها أغصان كبيرة من الغار، يبست أوراقها لتكون بمنزلة مظلة للجالسين على ظهر السدة، تحجب عنهم الشمس اللاسعة نهاراً والندى المزعج ليلاً " [12]. نجد السدة والمظلة، ملجأ يُستظلُ به، لكن القاص لم يرد أن يستظل بهما بمقدار ما أراد البوح برغبته في الحماية، لكنه حين يقول:" تحت مظلة الغار التي لم يعد يسمع حفيف أوراقها " [13]، نجد أن المظلة لم يعد يسمع حفيفها، وكأنه يعلن ذاك الخطر الوجودي الذي أرّقه، في الوقت الذي حاول فيه التملص من ذاك الأرق فجعل المكان مفتوحاً في قوله: " أطلقت البقرة المربوطة في ظل التوتة، خواراً خشناً مديداً، ثم رفعت رأسها، كما لو أنها تنتظر رداً من مكان ما " [14]؛ إذ إن قوله:(مكان ما) يعلن لا تحديد المساحة المكانية، و يهيء المتلقي لكثير من الخيارات التي تشي بالإعلان عن الرغبة في الانعتاق من قيود التحديد.

لقد عمد القاص إلى التنويع المكاني بين تقييد وإطلاق، فكان المكان السردي موحياً بالأفكار، عاكساً النفس الوجودي في الحياة والتفكير، الأمر الذي كشف الصراع الداخلي بين الشخصية وذاتها، وبين الشخصية والآخر، فقد بدت هدبا مهزومة ،لكنها ضحية فاعلة حين أثرت في حبيبها، وفي وصفه للبقرة: " طوّحت برأسها جانباً ، فقطعت الخناق الذي يربطها إلى حلقة حديد صدئة، مثبتة إلى جدار البيت الترابي ، وانطلقت تعدو نازلة في الزاروب ، بكل ما فيها من قوة " [15]. نجد عودته إلى التراث وإلحاحه على ذكر التراث في قوله: (البيت الترابي ،الزاروب)، ليدمج بين تمسكه بالتراث وعرضه تفاصيل البيئة البسيطة ،لأن البيت الترابي لم يقصد به أن يعلن مادة البناء الترابية المستوحاة من التركيب الوصفي(البيت الترابي)، بل أراد البوح بإلحاحه على استحضار التراث القديم ،ثم نجد الزاروب الذي لم يكن معبراً ضيقاً _كما يوحي معناه الظاهر _ بل يشكل رمزاً من رموز بساطة الحياة والبيئة التي تعيش فيها بطلة القصة والقاص معاً. ويحاول القاص الانتقال بين حدود الأمكنة منوعاً فيها، كما في قوله: " " " " وصلت البقرة إلى الوادي من دون أن تخفف من سرعتها ،وشرعت تعدو على الدرب الذي يلتف بشكل مائل ، حول سفح الجبل المقابل " [16]. نجد الوادي هنا وسفح الجبل المقابل من دون دلالة ظاهرية توحي بمعالم طبيعية محددة، بل كان الوادي مساحة ممتدة توحي بالانعتاق ،أما السفح فلم يكن جانباً مؤطراً بمحدودية الوصف، بل كان رمز الأمل الذي أراد القاص إبرازه، وفي قوله:" رفعت هدبا رأسها، مسحت السهل المترامي بنظرة متأملة، من دون أن تتوقف لحظة واحدة عن النشيج " [17]، لم يكن السهل المترامي أرضاً مفتوحة الاتجاهات ، بل كان السهل انعتاقاً ، وحالة فرار من المحدود إلى اللامحدود ، وهذا يناسب الرغبات المكبوتة لدى القاص.

يعي حسن .م. يوسف منزلة المكان في القصة؛ إذ إن المكان لا يظهر في القصة ظهوراً عشوائياً، وإنما يتم اختياره بعناية، لما يملك من دور مهم في إتقان النسيج النصي، لأن المكان هو " الحيز الذي تجتمع فيه العوامل والقوى التي تحيط بالشخصيات ،وتؤثر في تصرفاتهم في الحياة ،فالشخصيات بحاجة إلى مكان تتحرك فيه، والزمان يحتاج إلى

---

[12] – خمس مجموعات قصصية. حسن.م. يوسف، ص٤٣١.

[13]–المصدر السابق، ص٤٣١.

[14] –المصدر السابق، ص٤٣٣.

[15] – المصدر السابق، ص٤٣٣.

[16] –خمس مجموعات قصصية. حسن. م. يوسف، ص٤٣٥.

[17] – المصدر نفسه، ص٤٣٥.

مكان يحل فيه، كل هذا يحتاج إلى إطار يجمعها، ويتم تفاعلها، والمكان هو ذلك الإطار "[18]. ونجد خصوصية لذلك المكان في قصص حسن .م. يوسف، سواء أكان مكاناً مفتوحاً أم مغلقاً. لكننا إذ نستحضر قوله عن هدبا:" لم تفهم أبداً حديث جاراتها عن متعة السرير، لأنها كانت تعتبر سرير الزوجية أبأس مافي حياتها البائسة التي دامت ستة عشر عاماً "[19]، نجد أن القاص ذكر السرير، ولم يكن السرير فراش الزوجية ، بل كان مكاناً تمارس فيه فنون التعذيب الجنسية مع الزوجة المغتصبة من زوج شرس لا أخلاقي ، فكان السرير رمز الاغتصاب ، وانعدام الحرية، والظلم .

من الجميل أن القاص اعتمد على الأمكنة للبوح بمعالم ذاتية ، فعلاقة الإنسان بالمكان ليست سهلة ، بل معقدة ، وتنطوي على جوانب شتى ، فهناك أماكن جاذبة تساعدنا على الاستقرار والراحة ، وأماكن منفرة تثير فينا حس الاستنكار ، فالإنسان لا يحتاج إلى مساحة فيزيقية جغرافية يعيش فيها، ولكنه يصبو إلى رفقة يضرب فيها جذوره، وتتأصل فيها هويته ، ومما لاشك فيه أن هناك أماكن يرفضها الإنسان ، وأخرى يرغب فيها ، فكما أن البيئة تلفظ الإنسان أو تحتويه ، فإن الإنسان _طبقاً لحاجته_ ينتعش في بعض الأماكن، ويذبل في بعضها[20]، وفي قول القاص حسن .م. يوسف: " ظل ممدوح إلى جانبها من دون أن يغازلها أو يتودد إليها، مثل بقية الرجال، لكن بعد شهرين من موت زوجته في الصيف الماضي باح لها بينما كان يساعدها في فلاحة الأرض "[21]، نجد أن فلاحة الأرض لم تكن حرثاً لترابٍ يقلّب ، بل كان التركيب إشارة إلى إيحاء القاص بعطاء قادم تشارك فيه اثنان هما ممدوح وهدبا.

ونلاحظ قدرة القاص على توظيف المصطلح المكاني بما يخدم الفجوة الدلالية، ففي قوله:" قبل أسبوعين، استغل ممدوح غياب ابن هدبا في المدرسة ، وحاول أن يعيد فتح الموضوع معها مرة أخرى " [22]. تبدو المدرسة بناءً ينهلُ منه الطلاب العلم ، لكنه في حقيقة الأمر يشع بدلالات الأمل ، لأن المدرسة موطن العلم و العلم نور، و النور رمز من رموز ذات الأمل الذي ينشده القاص .

لم يمنع التفاؤل المشوب بأرق الأحداث القاص حسن.م.يوسف من التأمل و التوقف برهات من الزمن لاستجلاء حقائق الأمور، كما في قوله: " وقف ممدوح بقامته الطويلة و سترته السوداء الفضفاضة في منتصف الدرب " [23]، يبدو منتصف الدرب مركزاً بينياً يقسم الدرب الى قسمين، و هذا هو المعنى الظاهر لكنه ليس المعنى الذي يريد القاص البوح به، فهناك دلالة الحيرة حين يقف المرء بعد أن يبدأ مفكراً في إمكانية المتابعة أو العودة أو حتى البقاء حيث توقف، و هذا الأمر يشير إلى الحيرة و الاضطراب معاً، و أمام هذا المنحى الدلالي يمكن أن يكون منتصف الطريق مكاناً محدداً مغلقاً يشير إلى الذهول.

لقد برزت الأنساق المكانية المتنوعة في السرد، وتم ذكر المكان تبعاً لأنساق زمانية صاعدة، وأحداث مترابطة متماسكة يهيء السابق للاحق، ومن تلك الأمكنة ما يبينه الآتي:

---

[18] – فن القصة. محمد يوسف نجم، دار صار، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ص٨٩.

[19] خمس مجموعات قصصية. حسن .م. يوسف، ص٤٣٦.

[20] – ينظر: المكان في الشعر الأندلسي – عصر ملوك الطوائف. أمل العميري، المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، ٢٠٠٦م،ص١٠.

[21] – خمس مجموعات قصصية. حسن . م . يوسف، ص٤٣٤.

[22] – المصدر السابق، ص٤٣٢.

[23] – المصدر السابق، ص٤٣٣.

المكان	الدلالة
قرية بطشيت	الفكر الاشتراكي للقاص
البيت الحجري القديم	التمسك بالتراث
سدة ترابية خفيضة	التمسك بالتراث
أربع درجات حجرية	التسلسل الانتقالي
حظيرة البقر	التمسك بالتراث
قن للدجاجات	التمسك بالتراث
مظلة الغار	الرغبة في الحماية
مكانٍ ما	الانعتاق من قيود التحديد
البيت الترابي	التمسك بالتراث
الزاروب	عرض البيئة البسيطة
منتصف الدرب	الحيرة
المدرسة	أمل
الأرض	عطاء
حدود القرية	القيود
الوادي	نافذة الانعتاق
السفح المقابل	الأمل
البراري والأحراش	الخوف
الفراش	الاغتصاب
السهل المترامي	الانعتاق

نلاحظ أن المكان لدى حسن. م. يوسف كان ميداناً للتصريح بالرغبة في تجاوز قيود الحياة، والانطلاق إلى أفق ممتد رحب مليء بالأمل.

لقد احتل المكان أهمية واضحة في القصة من خلال لمس الحاضر، وإثارة الذكريات الماضية التي أسهمت في تشكيل الواقع المعيش، إنها اللحظة الحاضرة التي تجعل من البيت والقرية وعاءً وجودياً رحب الدلالة.

وبما أن المكان من مكونات السرد الرئيسة، فيمكن أن نعده في كثير من القصص الهدف الرئيس، فهو " الخلفية التي تقع فيها أحداث الرواية "[24] أو القصة، والمجال الذي تسير فيه أحداثها، ويكتنز تحولاتها.

وتستمد الرّؤية الإنسانيّة للمكان بعض تصوّراتها من علاقة الإنسان بمحيطه بعيداً عن الإدراك العقلي ، إضافة إلى أن ما يخلّفه من ذكريات وخيال يندرج ضمن الارتباط الوثيق والعلاقة الوطيدة التي يتبادلها المكان مع الإنسان .

لقد أدى تطوّر العلوم الإنسانيّة (علم الاجتماع ، علم النّفس) إلى استعمال مصطلح الفضاء تارّةً مرتبطاً بالمكان، وأخرى منفصلاً عنه ... [25] ، وبما أنّ المكان هو الحيّز المادّيّ الذي تجري فيه الأحداث ، والمنعكسات الوجوديّة والبيئة المكانيّة التي ولد فيها القاصّ ، أو هرب إليها ، هي التي تَسِم الشّخصيّة المبدعة ، وتطبعها بطابعها ، فمن الطّبيعيّ أن يحظى المكان بدور عميق الأثر في الكشف النّصّيّ ، وهذا يعني أنّ المكان عنصر مهمّ لا تخلو منه

[24]– بناء الرواية/ دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ/، ليزا قاسم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،2004م، ص74.

[25]– ينظر: شعريّة المكان في الشّعر الجاهليّ – المعلّقات العشر أنموذجاً، أحمد بن بغداد، جامعة جيلالي ليابس، سيدي بلعباس، ٢٠١٥– ٢٠١٦م.

النّصوص الإبداعية، غير أنّه ليس مجرّد إضافة شكلّيّة فارغة من المدلول ، وإنّما أصبح يُشكّل واحداً من مفاتيح النّصّ القصصي الذي يساعد على كشف مدلولاته وسبر أسراره ، ممّا جعله في رؤية النّقّاد والمبدعين زاوية النّصّ ، بوصفه المفتاح للولوج في فضاء النّصّ، والوقوف على حيّز المعاني التي يتضمّنها النّصّ الشّعريّ [26] .

إن علاقة حسن. م. يوسف بالمكان علاقة وطيدة ، فهو إمّا أن يلجأ إلى تصويره تصويراً خارجيّاً ، يصف ملامحه وأجزاءه ؛ ليستمتع به جماليّاً ، وإمّا أن يعقد بينه وبين المكان علاقة حميمة .

أنواع المكان في قصة (هدبا في آخر الدنيا):

1- المكان المفتوح .

تشكل الأماكن المفتوحة أوسع أنواع الأماكن، إنها منفتحة، وتتبلور في تفاعلاتها مع الحياة؛ لذا نجد كثرة تلك الأماكن المفتوحة لدى حسن .م. يوسف؛ إذ تظهر فضاءات وتختفي ملامح فضاءات أخرى، فالمكان المفتوح " حيز مكاني خارجي لا تحده حدود ضعيفة يشكل فضاء رحباً، وغالباً ما يكون لوحة طبيعية في الهواء الطلق "[27]، ومن تلك الأماكن المفتوحة في قصته(الدرب، السهل، السفح).

ولو تأملنا قوله : " نظرت إلى الشفق الممتد فوق السهل ، كما لو أنه صديق خائن ، أطلقت تنهيدة ، وقالت بصوت متحشرج من فرط القهر :

والذي رفع السماوات عن الأرض ، لو كنت أعرف أن الدنيا واسعة لهذه الدرجة ، ما عشت مع عباس الضبع يوماً واحداً "[28]، فهذا الفضاء الممتد مشبع بحوامل الذات الراغبة في الانطلاق ، فالمكان كان رؤيا ، والرؤيا امتداد ذاتي لجمالية الوجود الإنساني للشخص في مجتمعه وبيئته .

تنوّعت الأماكن المفتوحة في القصة التي حوت الأحداث الجارية فيها ، بحسب موقف القاص، ومن تلك الأماكن السهل والدرب وغيرهما ، و نجد لغة الحنين، ولغة الذّكريات ، عندما كانت هدبا بعيدة عن أسْرها / بيتها ، معبّرة عن أمانيها في الانعتاق والولوج في المكان المفتوح .

نرى في النّصّ (الإنسان / المكان) طرفين تجمعهما علاقة بعد زمانيّ يُشكّل بدوره ثنائيّة (الماضي / الحاضر) ، ومنها تتولّد ثنائيّة (القرب / البعد) ، تصحبها أماني في النّفس المعذّبة التي تريد عودة الماضي ؛ لأنّه يجمع (الأنا / الآخر) على أرض الواقع.

يشكل المكان المفتوح فكرة أساسيّة في تكوين المكان الموضوعيّ الذي يُمثّل الحيّز الموجود المدرك الذي يسبح في فضائه الفعل الاجتماعيّ ، وبوساطته يمكن تتبّع فعاليّة الوجود وإيجاد تجسيم يقوّض الحضور الطّبيعي بوصفه أثراً فاعلاً واستجابة متفاعلة ، ومتضادة مع نفسها ومع الآخر أيضاً [29] ، والقاصّ يستطيع أن يأخذ ملامح العالم الواقعي ، ويمزج فيه ذاته ؛ ليرسم لوحته الإبداعية المعبّرة ، فيصبح هذا المكان أو ذاك الخاصّ به هو الذي يحدّد أبعاده من خياله الخلاّب.

---

[26] – ينظر: المكان في الشّعر الأندلسيّ – عصر ملوك الطّوائف، أمل العميري، السّعوديّة، جامعة أمّ القرى، 2006 م ، ص12-13 .

[27]– المكان في القصة القصيرة الجزائرية الثورية، أوريدة عبود، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2009م، ص51.

[28] خمس مجموعات قصصية، حسن م يوسف، ص440.

[29] يُنظر : المكان في شعر ابن زيدون. ساهرة عليوي حسين العامري، رسالة ماجستير ، جامعة بابل ، 2008 م ، ص22 .

ويُنظر: دلالات المكان الشّعريّ. ناجي عباس مطر الركابي– دراسة في شعر حسيب الشّيخ جعفر ، العراق ، 2005 م ، ص17 .

وتشكيلات المكان تستثير من الذّاكرة ما انطبع بها تجاه المكان من تصوّر فردي أو جمعيّ، ويستمدّ قيمته الإبداعيّة من جوهر الموقف الإنسانيّ العامّ تجاهها ، والاستجابة الشّعوريّة أو اللاشعوريّة إليها ؛ فحسّ المكان حسٌّ أصيل عميق في الوجدان البشري [30] .

يسعى القاص من خلال استدعاء المكان إلى خلق فنّي جديد له ، فهو لا يسعى إلى تصوير ذلك المكان أو ذكر صفاته وحقائقه ، بل يعمل على إعادة خلقه من جديد ، مستلهماً كلّ إيحاءات المكان وما تفوح منه من دلالات تغني فكر القاص وثقافته [31] .

رسم القاص حسن م يوسف المكانَ المفتوحَ من حيث الطبيعة، والطريق العام، والدرب، والوادي، والسفح، والبراري، والأحراش، فرسَم لنا بوساطة قصته المكان لوحة فنية لتضاريس البيئة التي يحيا فيها ، وقدَّم لنا وصفًا لها، وحدَّث عن محتوياتها التي كانت مقرّاً لأحداث قصصه وأحلامه.

2-المكان المغلق.

يجسد المكان المغلق نقيضاً للمكان المفتوح، إنه محدود، مؤطر، مرتبط بالقيود الوجودية، فهو" المكان الذي حددت مساحته ومكوناته كمكان العيش والسكن الذي يأوي إليه الإنسان، ويبقى فيه فترات طويلة من الزمن، سواء بإرادته أو بإرادة الآخرين، لذا فهو المكان المؤطر بالحدود الهندسية والجغرافية الذي قد يكشف عن الألفة والأمان كالبيت أو قد يكون مصدراً للخوف والذعر كالسجن "[32]، ومن الأماكن المغلقة في قصة حسن. م. يوسف(البيت، الزاروب، السدة الترابية)، إنها الأماكن التي تجعل الرؤى مشبعة بكثير من الأرق حين يضيق المكان وتتسع الآهات والأماني.

المكان المغلق يوحي بالقتلُ والسجن والتعذيب، والقاصّ تنازعته في هذا المجال قوَّتان متعاكستان؛ تمثَّلت الأولى في السيطرة والتسلط والجبروت عند بعض شخصياته ، وتمثَّلت الأخرى في التحدِّي، والبطولة، والقتال الشرِس، والدفاع عن الحرية عند بعضهم الآخر.

هو المكان الخانق ، الملقى خارج النّفس، الذي يثير في الذّات الإنسانيّة الخوف والقلق لدرجة الاختناق، وتكون العلاقة بينه وبين الشّخص علاقة عدائيّة سلبيّة [33] ، والقاص يرفض المغلق عامّة ولا يألفه ؛ لأنّه يفقد فيه توازن الحركة ، ويشعر بالعزلة والانقطاع والغربة وعدم التّواصل ، ويشعر أنّ المحبوس هو إدراكه ووعيه .

والقضيّة الكبرى التي يؤمن بها القاص في المجال الإنسانيّ هي حريّة الذّات والوعي النّفسيّ ، وانطلاق الذّات المبدعة في فضاءات الزّمان والمكان، وهذا لا يمكن تأتّيه في السّجن، حين تنحبس الذّات بانحباس القدرة الجسديّة ، إنّ السّجن جريمة في حقّ إنسانيّة الذّات وتعبيرها عن نفسها ، وكبت للخيال الإنسانيّ المقدّس، والفيض المثاليّ النّاشئ عن العلاقة بين الإنسان ومحيطه الطّبيعيّ[34]؛ فيعاني الاغتراب بكلّ أنواعه وتفاصيله النّفسيّة المؤلمة.

---

[30] يُنظر: المكان في الشّعر الأندلسيّ – عصر ملوك الطّوائف ، ص21-22 .

[31] يُنظر : المضامين التّراثيّة في الشّعر الأندلسيّ في عهد المرابطين والموحّدين. د. جمعة حسين يوسف الجبوري، ط1 ، دار صفاء ، عمّان ، مؤسّسة دار الصّادق الثّقافيّة ، ط1 ، 2012 م ، ص187 .

[32]- صورة المكان ودلالته في روايات واسيني الأعرج، جوادي هنية، ط1، 2013م، ص178.

[33] يُنظر: المكان في شعر ابن زيدون ، ص47 .

ومن الأماكن المغلقة ما ورد في قوله: " أمام البيت الحجري القديم ، ثمة سدة ترابية خفيضة ، يهبط إليها بأربع درجات حجرية ، حيث حظيرة البقرة ، وقن للدجاجات ، ويصعد إلى سطحها بثماني درجات حجرية أخرى "[35]، وهذه الأماكن تشير إلى تلك القيود المكانية المرافقة للقيود النفسية ، وفقاً للآتي :

المكان	البعد الدلالي
البيت	سجن هدبا الذي لاقت فيه ضروب العذاب
سدة ترابية	موضع الأعمال الشاقة التي فُرضت على هدبا
حظيرة البقر	الوسط الحيواني الذي تفاعلت معه هدبا
قن الدجاجات	الوسط الحيواني الذي تفاعلت معه هدبا

كان المكان لدى حسن. م. يوسف الوطن، والتاريخ، والجغرافيا والرؤيا ، و عكَس المكانَ الثقافة والفكر، وبدَا ذلك واضحاً في كثرة اهتمامه بتفاصيل المكان ، ولَم يغفل عواطفه وأحاسيسه، ولم يُهمِل معاناته وتجاربه عند ذاك المكان، و نشأ بينه وبين المكان تعاطُف حميم؛ ولهذا لمحنا شخصيته، إذ بيَّن المكان ملامحه ومعالِمه عبْر كثيرٍ من قصصه التي نقرؤها، فنجد حضور لغةٍ مشْحونةٍ بالأحاسيس الدفَّاقة والمعاناة الشُّعورية، والتوهُّج الانفعالي، والإيقاع الإبداعي، والتصوير الفنِّي.

شَعَرْنا في قصة هدبا بسيطرة حالة الاغتراب ، والاغتراب شعور يلازم النّفس الإنسانيّة في لحظات الإحساس بالبعد والوحشة والانفراد ، وهو يولّد تفسيراً للحياة ، يمضي إلى اليأس ونشدان حياة جديدة يصوّرها الوهم أو الخيال أو الأمل أو الحلم ، فالاغتراب النّفسيّ مولِّده الاغتراب الاجتماع، وربما كان أهم جانب لتأثير المكان بالإنسان أن الفرد جزء لا يتجزّأ من مجتمع يحويه ، وله مع هذا المجتمع شبكة من العلاقات لا يمكن التّكهّن بمصيرها وإدراكها بسهولة ، وهي علاقات لها حيّز تكويني .

لقد سوّغ القاص _ بأسلوب قصصيّ شائقٍ _ فعلَ هدبا التي تحسرّت على البقاء في مكانها طويلاً، فكيف تبقى في بلدة ينالها فيها الضّيم والذّلّ، وفي الأرض متّسعٌ لكلّ طالب عزّ وكرامة، وفيها كذلك مقوّمات الرّحيل كلّها.

ومن الأماكن المغلقة الزاروب الذي جاء في قوله :

" وقفت متحفزة وطائر الرعب يرفرف في عينيها. تتبعت البقرة بعينها، وهي تنحدر في الزاروب الذي لا يخلو عادة من الأطفال "[36] فالزاروب يشكل مساحة ضيقة ، ولا سيما أنه مكان مشبع بالخوف والضيق ، لذا كان متماهياً مع الرعب والقلق.

لحضور المكان واستدعائه في قصص حسن. م. يوسف دلالات أخرى غير الدّلالات النّفسيّة، فإنّه يستحضر المكان ليرمز به إلى بعض القيم الاجتماعيّة، فالمكان قد يدلّ على قيم إيجابيّة أو قيم سلبيّة بحسب مفهوم السّياق الإبداعيّ، واستخدام القاص له؛ إذ يرتبط حسن. م. يوسف بالمكان الذي يعيش فيه بعلاقة إيجابيّة أو سلبيّة، فالمكان هنا مرآة عاكسة تعكس أوضاع المجتمع والأفراد الذين يتعامل معهم المرء .

[35] **خمس مجموعات قصصية، حسن م يوسف، ص431.**

[36] **خمس مجموعات قصصية. حسن. م. يوسف، ص٤٣٣.**

خاتمة:

استخلصت الدراسة نتائج كثيرة لدى تذوق المكان في قصة (هدبا في آخر الدنيا)هي:

- ✓ أراد القاص تسليط الضوء على أزمة الإنسان في وطنه، والرغبة في تقديم صورة لمسرح المعاناة التي يعيشها البسطاء في أغوار القهر والظلم.
- ✓ لقد كشفت لنا قصة (هدبا في آخر الدنيا) مفارقة الإنسان بين رغبة التمسك بالجذور ومحاولة الهروب إلى فضاءٍ خارجي.
- ✓ استعان القاص حسن. م. يوسف بتقنيات المكان المتنوعة من مكان مغلق، ومكان مفتوح، فتوازنت لديه نوافذ المكانين ، لكن النهاية انتصرت لمصلحة المكان المفتوح الذي يلائم رغبة الانعتاق، الأمر الذي يؤكد إبداع الإنسان في لحظات نسج مشاعره أفقاً من الرؤى في إطار مسرح الحياة والإبداع معاً.
- ✓ أدرك القاص أهمِّيّة المكان بالنّسبة إليه ، ومدى علاقته به ، فوظّفه في قصته، لأن المكان هو الأرض التي يعيش فيها ، والبيت الذي يسكنه ، والرّوض الذي يتنفّس فيه مع رفاقه ، ويستمتع بما فيه من ألوان الجمال ، والحوانيت التي يعربد فيها مع ندمائه ، والمساجد التي يتعبّد فيها، والوطن الذي نشأ وتربّى فيه . إنّ المكان يحيط به من كلّ جانب ؛ لذلك أولاه عنايته واهتمامه ، وأصبح شديد اللصوق به .
- ✓ لم يكن المكان حدثاً طارئاً في نصوصه ،أو فكرة عابرة ؛ إنّما هو رؤية خاصّة تشكّلت عنده، ووظيفة عبّر بها عن دلالة معيّنة أرادها أن تصل إلى القارئ .
- ✓ يشكل النسق منظومة علاقات داخلية للبنى القصصية التي وجدناها متنوعة لدى القاص، ومحملة برؤاه وتصوراته.
- ✓ كان البعد المكاني ذا طرفين أحدهما ظاهري عام، والآخر باطني له دلالة استعملها القاص على وجه الخصوص لتحديد الحالة المعيشة من جهة، وأثر ذاك المكان في ذاته من جهة أخرى.
- ✓ بدت كثير من الأماكن لفظاً مرناً حمل الانفتاح والانغلاق معاً؛ فالقاص في المكان ذاته وجد العزلة والانطلاق وفقاً للحدث المعيش.

المصادر والمراجع:

1. بناء الرواية / دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ/، ليزا قاسم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٤م.
2. تحليل الخطاب السردي، معالجة تفكيكية سيميائية مركبة. عبد المالك مرتاض، ديوان المطبوعات، الجزائر، ١٩٩٥م.
3. تحليل النص السردي، تقنيات ومفاهيم: محمد بو عزة، الدار العربية للعلوم، ناشرون، بيروت، ط١، ٢٠١٠م.
4. جماليّات المكان في الشّعر الجاهليّ – المعلّقات أنموذجاً، فواز معمري، جامعة محمّد بوضياف – المسيلة، 2017–2018 م.
5. خمس مجموعات قصصية ، حسن م يوسف ، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة ، دمشق ، ط1 ، 2018م .

6. دلالات المكان الشعري. ناجي عباس مطر الركابي– دراسة في شعر حسيب الشيخ جعفر العراق، ٢٠٠٥م، ص١٧.
7. شعرية المكان في الرواية الجديدة ، خالد حسين خالد ، كتّاب الرياض ، العدد 83، 2000م.
8. شعريّة المكان في الشّعر الجاهليّ – المعلّقات العشر أنموذجاً ،أحمد بن بغداد ، جامعة جيلالي ليابس ، سيدي بلعباس ، 2015–2016 م .
9. صورة المكان ودلالته في روايات واسيني الأعرج، جوادي هنية، جامعة محمد خيض، ط1، 2013م.
10. فن القصة ، محمد يوسف نجم ، دار صادر ، بيروت ، ودار الشروق ، عمان ، ط1 ، 1996م .
11. لسان العرب ، ابن منظور ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، ط1 ، 2005م.
12. المضامين التّراثيّة في الشّعر الأندلسيّ في عهد المرابطين والموحّدين، الجبوري، ط1، دار صفاء، عمّان، مؤسّسة دار الصّادق الثّقافيّة، ط1، 2012 م.
13. المكان في الشّعر الأندلسيّ – عصر ملوك الطوائف، أمل العميري، المملكة العربيّة السّعوديّة، جامعة أمّ القرى، 2006 م.
14. المكان في شعر ابن زيدون، ساهرة عليوي حسين، رسالة ماجستير، جامعة بابل،٢٠٠٨م.
15. المكان في القصة القصيرة الجزائرية الثورية، أوريدة عبود، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2009م.

Sources and references:

1. The construction of the novel / a comparative study in the Naguib Mahfouz trilogy /, Lisa Kassem, The Egyptian General Book Organization, Cairo, 2004 AD.
2. Analysis of the narrative discourse, a complex semiotic deconstruction treatment. Abdul Malik Murtada, Diwan Publications, Algeria, 1995 AD.
3. Analysis of the Narrative Text, Techniques and Concepts: Muhammad Bou Azza, The Arab House of Science, Publishers, Beirut, 1st edition, 2010 AD.
4. The Aesthetics of Place in Pre-Islamic Poetry - Al-Muallaqat as a Model, Fawaz Maamari, Muhammad Boudiaf University - M'sila, 2017-2018 AD.
.5Five collections of stories, Hassan M. Youssef, Syrian General Book Authority, Ministry of Culture, Damascus, 1st edition, 2018 AD.
6. The semantics of the poetic place. Naji Abbas Matar Al-Rikabi - A Study in the Poetry of Haseeb Sheikh Jaafar Al-Iraq, 2005 AD, p. 17.
7. The Poetics of Place in the New Novel, Khaled Hussein Khaled, Riyadh Books, Issue 83, 2000 AD.
8. The Poetics of Place in Pre-Islamic Poetry - The Ten Mu'allaqat as a Model, Ahmed Bin Baghdad, Djilali Liabis University, Sidi Bel Abbas, 2015-2016 AD.
9. The image of the place and its significance in the novels of Wasini Al-Araj, Jawadi Haniyeh, Muhammad Khaid University, 1st edition, 2013 AD.
.10The Art of the Story, Muhammad Yusef Najm, Dar Sader, Beirut, and Dar Al-Shorouk, Amman, 1st edition, 1996 AD.
10. The Art of the Story, Muhammad Yusef Najm, Dar Sader, Beirut, and Dar Al-Shorouk, Amman, 1st edition, 1996 AD.
11. Lisan Al-Arab, Ibn Manzoor, Al-Alamy Publications Foundation, Beirut, 1st edition, 2005 AD.

12. The traditional contents in Andalusian poetry during the era of the Almoravids and the Almohads, Al-Jubouri, 1st edition, Dar Safaa, Amman, Dar Al-Sadiq Cultural Foundation, 1st edition, 2012 AD.
13. The Place in Andalusian Poetry - The Era of the Kings of the Taifas, Amal Al-Amiri, Saudi Arabia, Umm Al-Qura University, 2006 AD.
14. The place in Ibn Zaydun's poetry, Sahira Aliwi Hussein, master's thesis, University of Babylon, 2008 AD.
15. The Place in the Revolutionary Algerian Short Story, Orida Abboud, Dar Al-Amal for Printing, Publishing and Distribution, 1st edition, 2009 AD.